

بجوت قيمة

الإسلام
في
عالم متغير

السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي

نقله إلى العربية
علي عثمان

دار الفکر للطباعة والنشر

بجوت قيّمة

الإسلام
في
عالم متغيّر

السيد أبو الحسن عليّ الحسيني الندوي

نقله إلى العربية
علم عيثمان

مؤسسة الزكّاء

مَقَدِّمَةٌ

ألقى الاستاذ الداعية السيد أبو الحسن علي الندوي مادة هذا الكتيب في الكلمة الافتتاحية للمؤتمر المنعقد في كانون الثاني ١٩٧٧ تحت رعاية قسم الدراسات الإسلامية في جامعة عليكرة بحضور عدد كبير من أساتذة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الإسلامية . وقد نشرت هذه المحاضرة فيما بعد مع الكلمة الختامية التي ألقاها الاستاذ الندوي في نفس المؤتمر المذكور ضمن كتيب مسما لبيت أن ترجم إلى اللغة الانكليزية يحمل عنوان الكلمة الافتتاحية وهو : « الإسلام في عالم متغير » .

وبعد أن كلفني الاستاذ الندوي بترجمته إلى اللغة العربية - جزاه الله خيرا ونفع المسلمين بعلمه - عمدت إلى نشر كل محاضرة في كتيب صغير يحمل كل منهما عنوان المحاضرة بالذات .

نرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه .

دمشق في ٧/٧/٧٨

علي مستو عثمان

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٧٨

ص٠ب بيروت ٨٨٤٢

ص٠ب دمشق ٥١٩٥

الإسلام في عالم متغير

أيها السادة ، نائب رئيس الجامعة ، أعضاء الهيئة

التدريسية في الجامعة والضيوف المحترمين ٠٠

اشكر منظمي هذا المؤتمر لمنحهم اياي شرف افتتاحه،
ولقد أحسنوا صنعا باقامته تحت رعاية الجامعة
الاسلامية عليكره ، والتي اهتمت بالعالم المتغير فيما
يتعلق خاصة بالاسلام والمسلمين في الهند .

ان الحركات والمؤسسات التي تعترف بحقيقة التغير
تحمّل نفسها مسؤولية عظمى ٠٠ انه ليس من السهل
الاعتراف بالحاجة الى التغيير والتعديل . اذ يترتب على
ذلك المراقبة باستمرار للتبدلات والتغيرات التي تجري
من حولنا وفحصها وتقييمها بموضوعية ، ونسائل فيما
اذا كنا مهيبين فعلا لهذه التغيرات ونقبل بتحدياتها ونكيف
انفسنا بموجبها ؟؟ ٠٠

لقد أخذ علماء الجامعة الإسلامية وندوة العلماء على عاتقهم مهمة كبرى ، وأن حشداً من أولئك الذين يمارسون السلطة في هذين المعهدين يشهد هذا المكان اليوم ، وعليهم أن يحلوا انفسهم قبيل تحليلهم للعصور وأن يقرروا فيما اذا كانوا مهئين للقبول بتغيير مشروع مرة اخرى بعد ان خضعوا للتحول في ما مضى .

التغير قانون الحياة

ان موضوع المناقشة اليوم هو الاسلام في عالم متغير وانه يتألف من شطرين : «الاسلام» و «العالم المتغير» وبذلك انتير الفرصة لاتقدم آرائي عن وجهي المسألة كليهما . بحيث نضفي عليهما شيئاً من الفكر بشكل صريح وحر .

يقترض ، عموماً ، أنه ليس للزمن ثبات أو دوام ، بل انه اسم آخر للتغير والتحول ، ولكن ليس الامر كذلك . ان الزمن مركب من الاثنين - التغير والاستمرار ، واذ اختلف هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغيير ، أو يتسلط التغير على الاستمرار ، فان ذلك سينتج آثاراً خطيرة تنعكس على المجتمع والحضارة ، وان التوازن بحاجة الي التناسب حتى أكثر من أي مركب كيميائي . ان الزمن له القدرة على التغيير ويجب ان يغير ، وذلك ليس علامة ضعف أو نقص ، انما هو قانون الحياة ، وكما قال اقبال : « ان الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب » وان الحياة الخالية من

القدرة على النمو والتطور يمكن ان تكون أي شيء آخر الا الحياة .

الى جانب ذلك فان مقاومة التغير هي - أيضاً - صفة متأصلة في الزمن ، وان مظاهر التغير تبدو لنا بوضوح . وكلنا نشعر كم تحول الزمن بشكل كبير . اننا في مجريات الامور العادية لا نوفق في الادراك ادراكاً تاماً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة وطبيعته وصفته الحقيقية ، وان ذلك يتطلب مجهراً خاصاً .

خذ النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة . من موجتين من امواجه متماثلتان على الاطلاق ، وبالرغم من امواجه العابرة فانه موجود مكانه منذ الاف السنين . محتفظاً بكل خصائصه ، واسمه واتجاهه . فانهار دجلة والفرات والغانج وجامونا كلها هي نفسها منذ ان كانت في العصور الغابرة .

ان الزمن ساكن بالاضافة الى كونه متحركاً . كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له . فهو - دون أي منهما - لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة . لأن القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الاشياء الحية وغير الحية الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقق هذه الاشياء قدرها .

الدين هو حارس الحياة :

باعتباري مريدا وتابعا لدين لا يمكنني - أبدا - أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكل تغير ، ولا يمكن أن توافق أنت على ذلك أيضا ، لأن الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح ، لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات ، ولا يمكن أن يصير إلى أداة آلية غريبة ، وليس بيننا واحد يريد من الدين أن يعمل كسجل للتغيرات اللازمة ، وأن ديننا وضعيا مزعوما لا يمكن أن يتحمل هذا الوضع فكيف بدين منزل ؟ ! ..

إن الدين يقر التغير كحقيقة واقعة ويعطي اكمل مجال لتسير الأمور من أجل تحول صحيح سليم .

الدين يتقدم مع الحياة يدا بيد ولا يواكبها فقط كتابها لها . . . ووظيفته هو أيضا أن يميز بين تغير سليم وآخر غير سليم . وبين نزعة هدامة وأخرى بناءة . . . ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحول نافعا أو ضارا بالبشرية أو باتباعه على الأقل .

وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنبا إلى جنب من جهة ، فإنه يعمل حارسا وحاميا لها من جهة أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة والسيطرة أيضا ، وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله الغاصر الموضوع

تحت وصايته ويؤيد كل ميوله . . . الجيدة منها والسيئة . . . أو أن يصادق بختتم الموافقة على كل شيء يسعى وراءه . . . بل إن الدين يمتلك ختما واحدا وحبرا واحدا ويذا واحدة فقط . . . وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أي وثيقة أو صك . . . بل يجب عليه أن يعزوي يختار . . . أجل أنه يفحص (الوثيقة) أولا ثم يصدر حكمه . . . فإن وجد فيها خطأ أو ضررا حاول الدين أن يتركها برفق . . . إذا أمكن . . . أو بقوة إذا اقتضى الأمر ذلك، وإذا عرضت عليه وثيقة واعتبرها ضارة بالجنس البشري فهو لا يمنع عن تصديقها وختمها فقط . . . بل يكافح لمقاومتها . . . وهنا يكمن الفرق بين الدين والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردمها بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها وإظهارها .

بعض المحن في تاريخ الدين :

نجد في تاريخ الدين بعض الفترات التي فقد فيها الدين الاتصال المباشر بالحياة ، ولكن التقصير لا يكمن في ذات الدين ، وإنما هو تقصير أتباعه ، وليس الدين هو الذي يفشل في مواكبة الحياة ، ولكن أنصاره هم الذين لا يطبقون مثله العليا وقيمه النبيلة نتيجة لكسلهم ولامبالاتهم . . . وأن هؤلاء الأنصار يتخلفون عن الركب بينما تسير قافلة الحياة إلى الامام .

والفرق بين الدين وأنصاره دقيق جدا حتى أننا لا

نشغل أنفسنا بالتحقيق لنصل الى تحميل أيهما المسؤولية الحقيقية ، ولكننا نميل - دائما - الى اقتراحهما ببعضهما . ولو أجريت دراسة نقدية موضوعية لتبين ان الاسلام من حيث هو عقيدة النبوة لم يكن مسؤولا عن هذه الحال المؤسفة ، لانه ليس في الاسلام ما يعضه من ذلابة حاجات العالم العملية وحل مشاكله .

انه لضعف عام فينا . . . أن نلقي باللوم على الآخرين، فعندما يتعذر على المسلمين حل مشاكلهم على ضوء القرآن ويعجزون عن ايجاد تألف بين احكام الشريعة النابعة من العقيدة الخالدة وبين حقائق العالم المتغيرة ينتقدون القرآن ولا ينتقدون أنفسهم ، ويقدمون للنقاد انطبعا بان القرآن ناقص لانه لا يقدم تبريرا لكل نزواتهم ورغباتهم وحاجاتهم !! . . . وكما قال اقبال :

« ان اعتقاد هؤلاء العبيد ان القرآن ناقص لانه لا يعلم المسلمين طرق العبودية !! » . . .

ويمضي بعضهم الى أبعد من ذلك اذ يحاولون اخضاع القرآن لنزواتهم واهوائهم ومطامحهم فيقدمون تفاسير له تتضمن تبريرا لاعمالهم وافكارهم المنحرفة الضالة . وبدلا من ان يصيغوا أنفسهم في قالب القرآن يحاولون صبب القرآن في قالب افكارهم واعمالهم تلك !! . . .

ولقد القى مولانا أبو الكلام آزاد الضوء على هذا

الضعف بأسلوبه الفذ في تفسيره للقرآن حين كتب قائلا « وعندما شعروا انههم لا يستطيعون أن يتمشوا والقرآن في علوه العظيم حاولوا ان ينزلوه عن عليائه ليتمشى ومستواهم المنحط . . . »

ندرة ذوي المواهب :

ان فترات الركود في عالم العقيدة ، أو فترات الفوضى والتعقيد ، والصراع الداخلي بين أتباعها : هي فترات يندر فيها الرجال ذوو الكفاءة والمقدرة . الذين يستطيعون قبول تحدي العصر ويعملون هداة اقوياء دعاة للدين .

وفي تاريخ الاسلام نرى انه كلما لقيت العقيدة تمثيلا فعلا حقيقيا كان المجتمع الاسلامي والشريعة الاسلامية - أبدا - في منأى عن أزمة الثقة . . . وخلال تاريخ الاسلام الطويل والمتأرجح بين القوة والضعف نجد رجالا بارزين ارتفعوا فوق المستوى العام ، ووضعوا نهاية لصدور الاذى في عصرهم ، وأوجدوا حلولاً للمشاكل الجديدة وأدوا - بنجاح - مسؤولية القيام بما تمليه العقيدة والدفاع عنها والتكلم باسمها . . .

فلقد ولد الامام أبو حنيفة والامام مالك والامام الشافعي والامام احمد بن حنبل في عصر كان الاسلام والعالم بحاجة اليهم ، ولقد حلوا المشاكل التي ظهرت

فعلا أن يكون رائد العصر الحديث ويرشده الى الطريق
السوي .

انطواء على الانتحار :

اية هوة من الدمار مقبل عليها العصر الحديث ؟ كيف
ينطوي على الانتحار ويدفع بالبشرية الى الهلاك ؟ انه
يقدم الكثير من الدلائل والشواهد التي تشير الى عدم
نفع الجنس البشري في مملكة الله وتبين ان الانسان لا
يمتلك حق العيش في هذه المملكة !! ..

ما القوى المدمرة التي تعمل عملها فيها ؟ من خلال
المبادئ الثابتة في القرآن سواء الاجتماعية منها او
الاخلاقية والتي تتعلق بالوجود الفردي والجماعي لا
يستطيع الاسلام ان يفي بمتطلبات العصر الحاضر
فحسب ، بل انه يستطيع - أيضا - ان ينقذ المدينة
الحديثة من الدمار والفناء . ان القضية لم تعد مسألة
مجاراة العصر الحديث . ولكنها قضية انقاذ البشرية .

ما هو مصير اولئك الذين يحلفون بالعصر الحديث
ويكيلون له المديح ويعقدون المؤتمرات باسمه والى أين
سينتهون ؟ هل سيسمع لهم صوت في عالم يعيد فيسه
البطن والشهوات الجسدية ؟ في وقتنا الحاضر هناك
في العالم وفي بلدنا قوتان يسلم بهما وهما : القوة
والثروة . وهنا يجدر بنا ان نتساءل : ايمكننا ان نفكر

نتفحج لتوسع بلاد الاسلام ، فقدموا التشريع الاسلامي
بشكل واضح ومحدد ، ونظرو فيها بعد قادة للفكر والعمل ،
كالامام ابي موسى الاشعري والامام الغزالي ، الذين
صارعوا التحديات التي واجهوها في زمانهم ووجدوا
حلولاً مناسبة لها .

سهلة مثلما هي معقدة :

ان القضية بسيطة جدا ولكن بامكانها ان تصبح
اكثر تعقيدا حين تفحص من وجهة النظر الفلسفية
والتحليل المنطقي . . انها سهلة كما هي معقدة ، وبسيطة
كما هي مركبة . انها سهلة وبسيطة اذا ما ادركت اولا
حقيقة ان الزمن لا يتغير بالطريقة التي لا تستطيع معها
مدرسة فكرية ولا نظام اخلاقي مجاراته . ويجب علينا
الوصول الى فهم اهمية الزمن ووضعه في المكان
المناسب ، وفي نفس الوقت فهم الاسلام ، وأن نتولى
دراسته دراسة عميقة ، ونرى أي هدي خاند هذا الذي
يقدمه لنا القرآن ، وكيف ان الاسلام يقدر ميزة التغيير
في الحياة ، ويدعو الى التفكير والتأمل .

وعلىنا أن نتفحص كيف أن الرعيل الاول من المسلمين،
الذين كان عليهم مواجهة افكار وعقائد وحضارات جديدة
والاول مرة ، استطاعوا انجاز مهمتهم بنجاح . .

ان التمشي مع العصر الحديث جنبا الى جنب شيء
لا يدعو الى الافتخار فيما يخص الاسلام ، اذ انه يستطيع

سوء فهم :

ان سوء التفسير يتسبب في كثير من حالات سوء التفاهم ، فلقد نصحننا الامام علي بمخاطبة الناس على قدر عقولهم ٠٠ وان تقدم الحقائق المبهمة بطريقة تمكن العقل من قبولها ، وليست القضية متعلقة باللغة وحدها، بل هي قضية طريقة التفكير وصيغة التعبير .

ثم يضيف الامام علي قائلاً : أتريدون ان تدخض احكام (أوامر) الله ورسوله ؟ وان يفند الله ورسوله ؟ لان دينه بديانته متناقض مع حقائق الزمن ، وانما لانها لا تقدم بأسلوب صحيح جذاب وسهل الادراك .

ان الاسلام يطلب مكانه الخاص به في العالم المتغير ويصر على هذه المطالبة اذا كان (العالم) ينشد الراحة . ومن جهة اخرى يمكن للعالم ان يتقدم في الوجهة الصحيحة تحت قيادة الاسلام .

الدين والتمدن :

ان اهتماماتنا في هذه المرحلة تتوجه نحو التمدن ٠٠ انها فكرة غربية ، وكثيرون هم الذين يتصورون ان الاسلام اسم لمدينة اندثرت وبادت !!! والكتاب مولعون بالتنويه اليها كثرات للاسلام ٠٠ وان الاسلام له مدنية ولكنه لا يمثل حضارة قديمة .

تفكيراً جدياً في اي شيء ضمن محيط كهذا ؟ وهل سيكون الناس في وضع يسمح لهم بالاصغاء لنساء العقل ؟؟ ثمة شعار واحد سيلقى الأذان الصاغية له في هذه الحال : أسمع التبن حينما تكون الشمس ساطعة (١) ، ولن يكون للواجبات والقيم الاخلاقية والمثل الروحية أي معنى ويصبح الحديث عن انقاذ البشرية مجرد هراء لا يعيره احد أدنى اهتمام .

ان قضية انقاذ العالم الحديث اصبحت الان اكثر اهمية من قضية انقاذ الاسلام ٠٠ فعليكم واجبا للاهتمام بالعصر الحاضر الذي سكر حتى انسه سار غير مهيب لأن يستمع الي أي شيء متوازن وجاد . ولا تقلقوا على الاسلام فإنه يراقب كل عصر ويقرر كل متطلباته العادلة والخيرة والمشروعة . وما من نظام اعدل وانصف من الاسلام ، فلقد اهتم بكل صرخة ألم اهتماما شديدا ، وهو يناشد العقل ويحضه دائما على البقاء نشيطا وفعالاً ٠٠ ان الجامعة الاسلامية والمدارس العربية هي اليوم في عطلة - ربما كانت في عطلة يوم أحد او يوم جمعة ، ولكن العقل البشري لا يعرف العطل ، ولقد أكد الاسلام على رجال العلم ان يكونوا اكثر تضحية من أي فرد آخر ، وأن يكونوا مستعدين ليعيشوا في مستوى حياة قاسية وصارمة ٠٠

(١) يراد بهذا المثل : استغلال كل فرصة حواتية في سبيل المنفعة .
(٢) يراد بهذا المثل :

نعلم ان حضارة عمرها خمسمائة او الف من السنين
ليس لها تأثير فعال في عالم متغير ، لكن الدين ليس
اسما فقط لبعض القيم الاخلاقية ، او لنظام اجتماعي
وثقافي او لدراسة في فن العمارة . . . انها قضية حقائق
تقع خارج نطاق الخبرة البشرية وقضية اركان الايمان
والمبادئ الجوهرية كعقيدة ، والصلة بين الرب وعباده
ونواميس الوجود السرمدية .

اذا كان مجال الاسلام بهذا الشكل فمن السخف ان
يتساءل المرء ما سيحدث للاسلام فيما لو تبدلت المعايير ،
وهل بمقدوره ان يتناسب معها ؟ فالفكسرون الغربيون
يثيرون قضايا باظلة ويعززون خلافات جدلية مضللة .
ومهما تغيرت الحياة فسيبقى هتسك مكان للحقائق
الخارجة عن نطاق الخبرة البشرية ، والوجود بكامله
يجب ان يخضع لمراقبة الايمان . . . والاسقطنا فريسة
لنفس الشر السائد في المجتمعات الغربية .

كتبه
الشيخ محمد بن عبد الوهاب
في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٠